غفران

استيقظت على برودة جامحة تخترق جسدي حتى النخاع، لأجد نفسي ممددًا على طاولة معدنية في وسط غرفة واسعة خلت من الأثاث إلا من هذه الطاولة، الغرفة ذات جدران بيضاء متسخة ويتدلى من سقفها خطاتيف مما يعلق عليها اللحوم في المجازر والثلاجات.

كانت الغرفة تكتنفها برودة لا أعرف مصدرها؛ سرت بسببها القشعريرة في جسدي.

حاولت النهوض، لكنني لم استطع على الرغم من عدم وجود ما يقيدني بالطاولة؛ لقد كنت ملتصقًا بها، نعم ملتصقًا بكل ما تحمل الكلمة من معنى!

حاولت ان أفتح فمي لأصرخ مناديًا؛ عسى أن يهب أحدهم لمساعدتي إلا أنني لم أستطع هذا أيضًا؛ فقد كانت شفتاي هي الأخرى ملتصقة ببعضهما تمام الالتصاق!

اجتاحني هلع، جعلني أهز جسدي بجنون، علَّه ينفصل عن الطاولة، مصحوبًا بصوتي المكتوم دون جدوى حتى خارت قواي.

في هذه اللحظة، ترامت إلى مسامعي وقع خطوات تسير على مهل، حتى أصبحت على مقربة مني .

من صوت الخطوات أدركت انها لسيدة تنتعل حذاءً بكعبٍ عالٍ، وعندما أصبحت في مرمى بصري أخذت أرقبها بتوتر بالغ، كانت تقترب مني في هدوءٍ يكاد يكون برود غير عابئة بنتظراتي المرتعبة المصوبة إليها، مرتديةً زيًا جلديًا أسود لامع يضم جسدها بحزمٍ فاضحًا تناسقه، بينما شعرها معقوص بصرامة للخلف على هيئة ذيل حصان.

صورة كلاسيكية لامرأة سادية خارجة للتو من فيلم رعب، ألعب أنا فيه دور الضحية!.

وقد كان توتري يزداد مع كل خطوة تخطوها؛ فتقرّبها مني و أنا بهذه الحال، لا حول لي ولا قوة، إلا أن عيناي اتسعت من الدهشة عندما اتضحت ملامحها، وأدركت أنها زوجتي!

استقبلت دهشتي بابتسامة سخرية، ثم نظرت إلى جسدي المُسجى أمامها على الطاولة بإمعان، لترفع يدها، فيلمع شيئًا معدنيًا صغيرًا تحمله بين أصابعها، لا يزيد طوله عن طول أصبع السبابة لديها؛ إلا أن لمعانه ينبيء عن مدى حدته.

حملقت فيه لبرهة حتى أدركت أنه مشرط، فهوى قلبي عند قدمي، وجحظت عيناي رعبًا وأنا أراها تنتقي بأي منطقةٍ تبدأ؛ فندت عني صرخات مكتومة جعلتها تنظر صوبي مباشرة، فتلتقي أعيننا في نظرة صامتة أتاحت لي رؤية كم هائل من الجفاء والقسوة قد سكنت عينيها واستقرت بهما، وهو ما لم أعهده فيها ابدًا طيلة حياتي معها، ووجدتني أسأل نفسي: من أين أتت بهما؟!

ليقطع صمت اللحظة صوت ضحكة هستيرية حادة صادرة عنها، أعقبتها بحديثٍ قائلة:

أحقًا تسأل من أين جاءت قسوتي؟!

ازدرت ريقي و معها دهشتي، من أين علمت بحديثٍ دائر بيني وبين نفسي؟!

- لا يهم كيف علمت،

أجابت بحدة، ثم أكملت بنفس الحدة:

المهم إجابة سؤالك، وسأجيبك.

أخذت تدور حول الطاولة بعصبية، فيما شرعت تقول:

- مبدئيًا، من صلفك وغرورك، فأنت دائما على صواب و أنا دائمًا على خطأ، رأيك قانون ورأيي شئ تافه لا يعتد به.

أنهت جملتها و قد هوت بمشرطها على ذراعي الأيمن؛ محدثةً به قطع غائر تدفق منه الدم بغزارة و تلوت معه أحشائي من شدة الألم.

ثم تابعت غير مكترثة لتأوهاتي المكتومة:

استهانتك بذكائي وقدراتي، وانتقادك الدائم لكل أفعالي؛ لتحقق تفوقًا وهميًا لا يوجد سوى بخيالك المريض؛ فيرضي غرورك و يخفف عنك وطأة شعورك بالنقص.

و مع الكلمة الأخيرة هوت مرة أخرى بمشرطها، هذه المرة على فخذي الأيسر؛ محدثةً قطعًا أخر، لا يقل ألمًا عن سابقه.

و توقفت برهة تتأمل جسدي المرتعش من الألم مصحوبًا بأنيني المكتوم بتلذذ لم تحاول إخفاؤه، ثم تابعت:

و ماذا عن كل تلك التفاصيل الصغيرة التي قد تسعد، وقد تتعس أيضًا؛ عيد ميلادي، عيد زواجنا، اتصالك عند تأخرك في عملك حتى لا ينتابني القلق، سؤالك لى عن أحوالي و كيف قضيت يومي أثناء غيابك، ابتسامتك في وجهي عند إقبالك وتوديعك لي عند إدبارك، كلها أشياء تجاهلتها متعمدا حتى.. حتى تلك الأشياء التي أحبها أو أكرهها من توافه الأمور، حتى تلك تجاهلتها عن عمد.

و خلال حديثها السابق كانت قد غيرت من استراتيجيتها؛ فهي لم تنتظر حتى تنهي حديثها لتسقيني من مشرطها شراب الألم اللاذع الموجع، بل كانت مع كل تفصيلة تذيقني إياه بمنتهى العنف والقسوة، حتى شعرت بأن قلبي سيتوقف من شدة الألم.

و يبدو أنها أدركت ذلك و لسبب ما خشيت حدوثه، حيث اقتربت مسرعة من صدري تتسمع نبضاته ثم نظرت إلي بمرارة قائلة:

و قلبك هذا، ووعده لي بالحب و السعادة بعد الزواج، لِما حنث به؟

أغمضت عيني وأنا أستقبل مشرطها يغمد في صدري بلا رحمة، لتشخص عيني تجاه سقف الغرفة، بينما كان جسدي ينتفض كدجاجة مذبوحة.

و هنا هدأت نبرة صوتها و هي تقول:

لا تمت؛ لم ننتهي بعد!

كان صوتها كأنما يأتي من مكانٍ بعيد، أو ربما كنت أنا من يذهب إلى مكانٍ بعيد.

شعرت بأنفاسها الحارة تغمر وجهي البارد وهي تقترب لتنظر في عينيّ الشاخصة نحو السقف، لتكن صورة وجهها أخر ما تراه عيني، و هي تمضي في حديثٍ هادئ:

فمازال هناك عقلك الذي صور لك أحقيتك في امتلاكي واستغلالي واستعبادي بعقد زواج !.

و كانت طعنة مشرطها الأخيرة بين عينيَّ لينتفض جسدي بعدها نفضته الأخيرة أيضًا، بينما تحلق روحي إلى عنان السماء مثقلةً بتساؤل يبدو أنه سيؤرقها إلى أبد الأبدين:

و هل ستمنحني يومًا حق الغفران؟!

استيقظت فزعًا من نومي؛ بجسدٍ يتصبب عرقًا و أنفاسٍ متلاحقةٍ ولعابٍ جافٍ جعلني أتجرع كأس ماء كان بجواري جرعة واحدة، ثم أسرعت إلى المرآة، أنظر إلى جسدي غير مصدق ان مامررت به ما هو إلا كابوس مُفزع، و تلفتُّ حولي ناظرًا لأشيائي التي أعلفُها، مؤكدًا لنفسي أنه فعلًا مجرد كابوس شملني أنا وزوجتي.

لكن أين هي زوجتي؟! وهرعت أجوب المنزل باحثًا عنها لأجدها في المطبخ تستعد لتقطيع اللحم بسن السكين، و قد استقبلتني بابتسامة و دودة وهي تقول:

استيقظت اخيرًا.

أومأت برأسي إيجابًا، وقد تعلقت مقلتاي بنصل السكين في ذهابها وإيابها على المِسَّن، سرت في جسدي رعشة لم تكن بغريبة، جعلتني أنقض على يديها ضاما إياهما بقوة بين راحتي ساحبًا السكين برشاقة من بين أصابعها بينما أقول بصوت مضطرب:

حبيبتي.. ما رأيك بعشاءٍ في الخارج.

سألتني باستنكار: وما المناسبة؟!

أجبتها: بمناسبة حبي الذي يزيد لكِ يومًا بعد يوم.

فغرت فاها وهي تسمع كلماته، وتراه يرفع يدها لشفتيه فيلثم أناملها بعذوبة وتودد، ثم يستطرد في حديثٍ طويلٍ عن رغبته في اصطحابها في أجازة طويلة إلى ذلك المكان الذى طالما أرادت الذهاب إليه، وأنهما يجب عليهما تغيير روتين حياتهما من وقتٍ لأخر، و أنه يتمنى أن تغفر له انشغاله عنها، وأنه سيعوضها عن ذلك كله و..

وهي غارقة في هواجسها تسأل نفسها والريبة تكاد تقتلها:

تُرى.. أيُ ذنبٍ اقترفتَ في حقي هذه المرة؟

لتتنبه على صوته يناديها، فتنظر له بأعين مترددة بينه و بين السكين الموضوع على طاولة المطبخ الخشبية !

تمت

بقلم / رشا فوزي